الفصل الخامس عشر

سلطان الدين وخذلان التدين

obeikandl.com

obeikandl.com

سلطان الدين وخذلان التدين

إن بيان الحق المأمور به شرعًا يقتضي أن يبلغ وحي الله للناس حتى يصبحوا قادرين على التفريق بين الدين والتدين، فالدين الحق له مصادره واعتباراته العالية، وليس من الإنصاف أن يعرف الناس دينهم من سلوك المتدينين فقط، فهناك فروق جوهرية بين الدين القوي بذاته، انطلاقًا من النصوص والنظريات المقدسة، كما نزلت على الأنبياء، وبين التدين الذي يعني مقدار ما يأخذ الناس من تلك النصوص مما ينعكس على سلوكهم العام وتعاملاتهم اليومية، التي دائمًا تكون دون الكمال والمطابقة عند من يجتهدون في تطبيقه بصدق وإخلاص، فيظهرون بضعف في التطبيق قد لا يسلم منه أحد.

*****

أولًا: قوة الدين

لا حياة للإنسان بلا دين، ولا دين إلا دين الحق، ولا حق إلا ما قال الحق عنه: إنه الحق: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩] ولا بد للنفوس من تدين بشكل أو بأخر كضرورة من ضرورات توازنها الوجودي والنفسي، فإذا لم تجده بالحق بحثت عنه بالباطل؛ لأن ثمة فراغًا روحيًّا مع غياب الدين من الوجدان ولا بد له من ملء، وهذا من أسباب انتشار الوثنية في مراحل التاريخ الخالية من الرسل، خاب وخسر أولئك الذين يريدون فصل الإنسان عن نزعة التدين الملازمة له، إنهم لا يدركون أن الدين يقع من وجود الإنسان موقع القلب من الجسد، وأنه سر التوازن النفسي والعاطفي والوجودي له مهما جادل وكابر وأنكر واستنكر، وجميع المحاولات اليائسة لعزل النزعة الدينية عن التركيبة الإنسانية وكينونتها باءت بالفشل الذريع؛ لأنها ببساطة تصادم ناموسًا كونيًّا مستقرًّا قد قال الخالق فيه كلمته، ولا تبديل لكلمات الله، نتحدى أي علماني لا ديني أن ينكر شعورًا ما يدفعه نحو البحث الجاد في مسألة التدين؛ لأن الحقيقة التي لا يجادل فيها إلا مكابر هي أن الدين بالنسبة إلى الإنسان أمر فطري بحت، ومكون نفسي وطبعي له،

يصعب تجاوزه أو تجاهله، ومهما تصنع القوم موقفًا يوحي بإنكار الدين، فإن فلتات ألسن رموز التوجهات اللادينية وقيادييها، وقادة الدول اللادينية كما يسمونها، حسمت الأمر وأحرجت دعاة هذا التيار، والأحزاب الدينية في أي ملة تحظى بشعبية كاسحة أمام تلك التي هي أقل اهتمامًا بالدين من ذوات التوجهات الليبرالية والعلمانية.

لا يتوقف الأمر عند الأديان السماوية الصحيحة في أصلها فحسب، بل حتى الديانات الوضعية والشركية الباطلة كالأحزاب الهندوسية والبوذية في شبه القارة الهندية مثلًا، إذا لم يعتنق الإنسان دين الحق، أوجد فراغًا داخليًّا في كينونته سرعان ما يفتش عن أي مادة روحية مالئة ليملأ بها هذا الفراغ الروحي الخطير ولو بدين باطل لاستحالة بقائه فارغًا، وكأن قلب المرء منهم مثل إناء عسل ترك فارغًا مفتوحًا، فتراكم فيه القش والغبار يوم خلا من العسل المصفى، إذًا لا بد من دين في حياة الإنسان حتى يتوازن نفسيًّا وسلوكيًّا، يقول أفلاطون: «لا بد للمجتمع من إيمان ودين حتى نقنعه بالسلوك اللائق لكبح جماح الشهوة والمنافسة والنزاع»(١)، ويقول الفيلسوف الأمريكي (ديفد برلنسكي)(٢): «الذين اقترفوا الجرائم الكبرى ضد البشرية كهتلر وموسيليني وستالين ورجال المخابرات الغربية أيضًا، لم يكونوا يعتقدون أن الإله يراقبهم»(٣)، ويرى (كانت) أن الإيمان بالله ضروري للأخلاق.

والدين له سلطان عجيب على النفوس، في تطويعها وترويضها، إذ لا بد أن يتضمن كبحًا للجماح وتنازلًا عن شهوات فردية للصالح العام مقابل الاشتراك في المنفعة العامة بالدنيا وانتظار الجزاء الأوفى لهم فيما بعد في الآخرة، ويوجب التحكم في الرغبات الممكنة والتخلي عن بعضها مع القدرة على الوصول إليها، وليس متدينًا من ادعى الصلاح لمجرد عجزه عن الوصول إلى الفساد، يقول (نيتشه) متهكمًا من أولئك القوم: «إنني أسخر كثيرًا من الذين يفكرون أنفسهم صالحين لأنهم ليس لديهم مخالب ينبشون بها»(٤).

---

(١) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٣٨.

(٢) ديفيد برلنسكي David Berlinski ولد في نيويروك عام ١٩٤١م وهو أستاذ في الرياضيات وأحد أعمدة حركة التصميم الذكي لفهم الوجود ومن وراء الوجود: (رحلة عقل، شريف، (مرجع سابق)، ص١٠١).

(٣) وهم الإلحاد، شريف، (مرجع سابق)، ص١١٨.

(٤) قصة الفلسفة، ديورانت، (مرجع سابق)، ص٢٤.

وإذا كان هذا مقام الدين بالنفس البشرية فليس من الإنصاف أبدًا أن تنظر إلى الدين السماوي على قدم المساواة، مع اجتهادات البشر في علوم الإدراة والاقتصاد فضلًا على خرافاتهم وخزعبلاتهم في المعبودات الأرضية والطقوس والأوثان المضللة حتى وإن أسموها دينًا، ثم ننتقل منها إلى وحي السماء مقارنين! وكأنه فكر بشري متقلب يخضع للمراجعات والتصحيح مع الزمن، فالدين المتعلق بالوحي أمر إلهي عظيم يفوق الكون كله عظمة وقدرًا، ومن ثم فهو أكبر رسوخًا وثباتًا من خيارات البشر وآفاق معارفهم ومداركهم المحدودة، وأشد ما يجد من أثر الدين السماوي على القلوب أمران: الأول، وصول الأيدي العابثة إلى نصوصه المقدسة والجرأة على تحريفها وتبديلها، كما حدث ذلك مع كتب اليهود والنصارى باعترافاتهم، والأمر الثاني، سلوك المتدينين أنفسهم، الذي يصعب على الرأي العام فصله عن الدين، فيصبح وكأنه منه، فتنسب إليه ظلمًا وتعديًا على قداسته وطهارته وعدله.

والحقيقة هي أنه لو استطاع الناس التفريق بين الدين بما له من أصول ثابتة محفوظة وبين بعض المتدينين المتقلبين في سلوكهم لكفونا مؤونة الشرح والتوضيح في هذا الباب، ولأصبح الدين الرباني في مأمن من هذه اللوثات البشرية المنغصة فكريًّا على ذوي العقول السليمة، وحتى مع الحذر من أخذ ما عند أهل الكتاب لاختلاط الحق بالباطل عندهم، فعلى أقل تقدير أن تعرف النصرانية من خلال تسامح المسيح عليه السلام الذي قال: «إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأعطِه خدك الأيسر» خلاف معرفتك بها من خلال سلوكيات (أدولف هتلر)[1] أو (موسيليني)[2]، وأن تعرف اليهودية من

---

(١) أدولف هتلر Adolf Hitler (١٨٨٩- ١٩٤٥م) الموافق (١٣٠٦- ١٣٦٤هـ) زعيم ألماني نازي تأثر بنظرية (داروين) فشجع الصراع بين الأجناس بهدف انتقاء الأجناس واقتنع بفكرة (نيتشه) عن (الإنسان السوبرمان) فآمن بالقوة وسيلة لقيام الدولة وتأثر بكتاب (مارتن لوثر) عن (اليهود وأكاذيبهم) وبنى شخصيته على ذلك قاد ألمانيا نحو الحرب العالمية الثانية وكاد يسيطر على أوروبا وغرب آسيا بالكامل لولا تدخل موجة البرد وتحالف العالم على قتاله فانتحر عام ١٩٤٥م بعد هزيمة ألمانيا في الحرب: (رحلة إلى قلب الإلحاد، حلمي القمص يعقوب، الجزء الأول: الإلحاد بذور ورجال ٢٠- أدولف هتلر).

(٢) بينينو موسيليني Benit Mussolini (١٨٨٣- ١٩٤٥م) الموافق (١٣٠٠- ١٣٦٤هـ) دكتاتور إيطالي اعتنق الاشتراكية ثم أصبح فاشيًّا استولى على العاصمة روما قضى على جميع خصومه السياسيين وتحالف مع ألمانيا في الحرب العالمية الثانية وبعد الهزيمة علق على عمود في الساحة العامه مقتولًا:
(Encyclopaedia Britannica- Benito Mussolini, Christopher Hibbert, Last Updated 62014-8-).

خلال (عبدالله بن سلام)[١] خلاف ما تعرفها من خلال سلوكيات (حيي بن أخطب)[٢] أو (شاس بن قيس)[٣]، وأن تعرف الإسلام اقتداء بالرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ومن تبعهم على ذلك بإحسان، خلاف ما تعرفه عنه من سلوكيات (الحجاج بن يوسف)[٤] أو (أبي مسلم الخراساني)[٥] أو (عبدالله السفاح)[٦] أو غيرهم من طغاة المسلمين.

جميع الأديان السماوية في الأصل نزيهة ومقدسة؛ لأنها جاءت من عند الله وحده، ويجب ألا ننظر إليها من خلال جهل أتباعها بها، ولا سلوكيات ساستها ولا زلات علمائها وأحبارها ورهبانها، بل الواجب أن نعلم أن التوراة فيها هدى ونور في أصلها، والإنجيل فيه هدى ونور ومصدق لما بين يديه من التوراة، والقرآن هدى ورحمة للمؤمنين و﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦] ولأن الجميع من عند الله فهو الذي جعل الدين عنده الإسلام، ودعا الناس كافة إليه، هذا هو الأصل بالجملة فيما أنزل الله على عباده وهذا هو الدين الحق من مصادره الصحيحة بعيدًا عن مستوى تدين الناس به، ودون هذا الدين الصحيح لن يتمكن الإنسان من معرفة ربه

---

(١) هو الإمام الحبر المشهود له بالجنة عبدالله بن سلام حليف الأنصار ومن خواص أصحاب رسول الله ﷺ له إسلام قديم فيه نزل قوله تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾ [آل عمران: ١١٣] وكان من أحبار اليهود قبل إسلامه: (سير أعلام النبلاء الذهبي، الجزء الثاني، ص٤١٣).

(٢) حيي بن أخطب أحد أشهر زعماء يهود بني قريظة الذين غدروا بالمسلمين في غزوة الأحزاب قتل معهم بعد تفرق الأحزاب عام ٥هـ: (سيرة ابن هشام، ص٥٦٠).

(٣) شاس بن قيس كهل من يهود المدينة ومن أشدهم عداوة وحسدًا للمسلمين بلغ به الحقد أنه لما رأى الأوس والخزرج في جلسة أخوية لم يتحمل الألفة بينهم فأرسل إليهم شابًّا يهوديًّا يذكرهم بحرب (بُعاث) فكادوا يقتتلون بسبب وقيعته لولا تدخل النبي ﷺ لاحتواء الموقف: (سيرة ابن هشام، ص٣٠٩).

(٤) الحجاج بن يوسف الثقفي (٦٦٠-٧١٤م) الموافق (٤٠-٩٥ هـ) والي بني أمية على العراق والمشرق مدة عشرين عامًا عرف بالشجاعة والدهاء والخطابة وتعظيم القرآن إلا أنه كان جبارًا سفاكًا للدماء: (سير أعلام النبلاء، الذهبي، الجزء ٤، ص٣٤٣).

(٥) هو عبدالرحمن بن مسلم الملقب بالخراساني ولد عام ١٠٠هـ (٧١٩م) وقتله أبوجعفر المنصور عام ١٣٧هـ (٧٥٤م) كان جبارًا سفاكًا للدماء ويعرف بأنه صاحب دعوة بني العباس من أشهر ملوك الإسلام: (سير أعلام النبلاء، الجزء السادس، ص٤٨).

(٦) عبدالله السفاح الخليفة العباسي الأول (٧٢٣- ٧٥٣م) الموافق (١٠٥- ١٣٦هـ) كان شابًّا مهيبًا طويلاً وقورًا سفاكًا للدماء: (سير أعلام النبلاء، الذهبي، الجزء الرابع، ص٧٧).

معرفة صحيحة سليمة متكاملة، ومن دونه لن يعرف أيضًا لماذا خلق، ومساره ومآلاته بعد الدنيا ومبتدأه ومنتهاه في الوجود.

*****

ثانيًا: ضعف التدين

يمكن تعريف معيار التدين بأنه درجة المطابقة بين الظاهر والباطن مما يأخذه الناس قولًا وعملًا واعتقادًا من الدين الصحيح مما ينعكس على سلوكهم وتعاملاتهم، فيصبح المرء أكثر تدينًا عندما يكون أكثر قربًا من نصوص وتعاليم الدين اعتقادًا وقولًا وعملًا، وأكثر الصدمات التاريخية المنفرة من الدين إنما تحدث بسبب سلوكيات بعض القائمين عليه مما يتعارض مع جوهره النقي، بحيث يكرهه المرء، ويكره من بلغه بل وينفر حتى ممن أوحاه إلى أنبيائه، وليس من العدل أن يتم الخلط بين الوحي كنصوص ونظريات حضارية راقية بل غاية في الرقي، وبين التدين البشري وسلوك ومعاملات وآراء المعتنقين له، وهذا الخلط خطأ جسيم وحكم جائر وتحميل للدين ما لم يحتمل، وهو ما وصفه القرآن بأنه نوع من الكذب على الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

ومن الطبيعي أن ينتج عن هذا الخلط الخاطئ رد فعل سلبي ضد الدين والتدين والمتدينين على حد سواء، كما حدث في أوروبا قبل اندلاع الثورة الفرنسية، وما تبعها من تفشي الإلحاد وعلمنة أوروبا نتيجة التعسف الديني الذي مارسه الكهنة المتسلطون دنيويًّا على الناس باسم الدين المقدس لتسخير المجتمع لخدمة أهدافهم ورغباتهم الشخصية الضيقة، فتحول المجتمع إلى سادة مقدسين في الأعلى من الأقليات، وعبيد منبوذين في الأدنى من الأغلبية، وإلى قلة ثرية ثراء فاحشًا في القمة، وأكثرية فقيرة مسحوقة منبوذة في القاع، وكأنهم خلقوا فقط للسخرة والكدح لمصلحة الإقطاعيين، وكل ذلك يحدث على مرأى ومسمع بل وبمباركة من رجال الدين الشركاء للظالمين في الغنيمة على حساب عرق ودماء وجهود الشعوب المضللة باسم الدين.

فماذا كانت النتيجة الطبيعية لهذا الضلال؟ قامت الشعوب بثوراتها الدموية على تلكم الأقليات الظالمة، فلم يفرقوا بين رجل دين وإقطاعي وملك، ولما أفرج عن سجناء سجن (الباستيل) الشهير في باريس، وشموا رائحة الحرية، وأدركوا أنهم كانوا ضحية تحالف الكنيسة مع (آل بوربون)[1]، هتفوا هتافهم الشهير: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس»، وما كان هذا الموقف التاريخي ليحدث لولا مرارة الظلم والسخرة والاستغلال الفاحش لمقدرات الشعوب وخبراتها، الذي أضفي عليه صبغة دينية، فكان الفرد المستبد يسرق ويغتصب ويسجن ويقتل، ثم لا يخجل أن يجاهر بقوله: إن ذلك كله باسم الرب! فكان من الطبيعي أن تنتفض الشعوب كافرة بذلك الدين وملحدة بمن ينسب إليه، منكرين لذلك الرب المزعوم! رافضين لهذه المسرحية الهزلية في توظيف الدين توظيفًا دنيويًّا فئويًّا بغيضًا؛ لأنهم يملكون رصيدًا فطريًّا يهمس في آذانهم بهذه الحقيقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وهذا الموقف الرافض للباطل ليس باطلًا كما يحلو للبعض تسميته، بل هو الحق الذي يستقيم تمامًا مع الفطرة السليمة للناس، فكفر الناس وإلحادهم بهذا (الرب) الوهمي والإستغلالي المبارك للظلم ولاستبداد عند الاقطاعيين ورجال الدين أمر واجب فطريًّا، تمهيدًا للوصول إلى الإيمان بالرب الحق الذي هو الله الرحيم الرحمن الذي لا يظلم الناس شيئًا، والذي من عدله ورحمته أن أمر بالقسط في الدنيا، وجعل من يوم القيامة موعدًا لتصفية نهائية لما لم يتم الحصول عليه من حقوق في الدنيا، وجعل خاتمة رسالاته ترفع شعار العدل والرحمة للعالمين جميعًا، وليس للمسلمين وحدهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

إن مسؤولية رجال الدين والعلماء في كل ملة أكبر من مسؤولية فرد من عامة الناس، ولقد جاء الوعيد الشديد للفئة القائمة على الدين، عندما يكتمونه أو يشترون به ثمنًا ماديًّا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ

---

(١) آل بوربون Maison de Bourbon عائلة ملكية فرنسة فرع من عائلة الكابيتيون التي ترجع أصولها إلى لويس الأول وقد حكموا نافارا وفرنسا في القرن السادس عشر وامتد حكمهم في القرن الثامن عشر فحكموا إسبانيا وصقلية وفي الوقت الحاضر ترجع إليهم أصول ملوك إسبانيا والسويد: (ويكيبيديا).

﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] أو يوظفونه توظيفًا دنيويًّا بحتًا لخدمة مآربهم على حساب الآخرين، ويحرفونه عن مساره العامر للدنيا والآخرة، فيستغلونه لأهداف ذاتية تتعارض مع روح الوحي المنزل من عند الله، قال تعالى محذرًا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

إذًا والحال هذه، فتصرفهم هذا باطل وليس من عند الله قطعًا، ولا نقف عند هذا الحد بتخطئتهم فحسب، بل يجب المسارعة إلى الكفر بطاغوتهم هذا والتوجه فورًا إلى وحي الله الصحيح، حتى نستمسك بالعروة الوثقى، أما هذا الذي يزعمونه دينًا ومن يقف وراءه من أئمة الضلال أيًّا كانوا، فهم الطاغوت الذي أوجب الله الكفر به قبل الإيمان بالله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

لهذه الأسباب التاريخية كان من الطبيعي أن توجد نزعات إلحادية خاصة في أوروبا يتصدرها ملاحدة يجاهرون بإلحادهم الانتقامي التنفيسي من جراء هذا التسلط الباطل باسم الدين، خاصة من أولئك الذين ينحدرون من أصل يهودي أو نصراني، حيث تحريف الكتب المقدسة عندهم قد بلغ ذروته، وهو ما لم يحدث مع المسلمين المحفوظين بقرآن يتلى قد تكفل الله بحفظه لا يـأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يقول المفكر الإسلامي أحمد ديدات: «إذا قال لك اليهودي أو النصراني: إنه ملحد، فقدم له التهنئة؛ لأنه لم يقلد أباه وأمه على الضلال، بل فكر بعقله، وقرأ الأوصاف الخرافية للرب عندهم، فلم يستسغها عقله، فألحد ظاهريًّا، لكنه متعطش للدين من داخله، والدليل على ذلك أنه بمجرد أن تبدأ معركة مع المسلمين تظهر يهوديته أو نصرانيته من عقله الباطني وبقوة، فهو ليس ملحدًا بل محبطًا بما وجده في كتبه المقدسة عن الرب»[١].

(١) اقتباس من مقطع مرئي من محاضرة لأحمد ديدات رحمه الله في إجابة له عن سؤال: (كيف ندعو ملاحدة اليهود و النصارى إلى الدين الحق؟): (موقع YouTube على الشبكة العنكبوتية).

وتُعدّ آراء الفيلسوف (رسل) من أشهر ما يستشهد به دعاة الإلحاد لتبرير نزعاتهم الإلحادية وترويجها بين الناس، والحقيقة أنهم يتعمدون التدليس بإخفاء حقيقة أفصح عنها رسل بنفسه عندما أكد بقوة أن مشكلته محصورة في تدين المتدينين وليس مع الدين نفسه، استمع إلى مقولته الشهيرة: «إن الخطر الأكبر ليس في الدين كما هو في حد ذاته، بل في الذهنية الدينية ذاتها التي يمكن أن توجد بكل أسف في النظريات والأنساق السياسية»(١).

*****

الطريق باتجاه واحد!

لا تستوحش النفوس من الطرق المفتوحة باتجاهين، ذهابًا وإيابًا، صعودًا ونزولًا، غيابًا وحضورًا، مرضًا وشفاء، بقدر ما يغشاها الرعب والخوف من رحلة بلا عودة أو صعود بلا نزول، أو ذهاب بلا إياب هكذا حالنا وحالك مع الدنيا وأنت تسير نحو الآخرة الحتمية، أنت على يقين بأنك في رحلة عبور متسارعة وكأنك في مقعد طائرة مشدود الحزام تنتظر هبوطها في محطة الوصول النهائية، كلنا يدرك ما تحمله من هم وقلق على سلامتك وأنت في الجو! جل همك كيف سيكون وضعك الآمن عند محطة الوصول التي أنت هابط فيها لا محالة، فلا بد من تخطيط وتصور لما سيواجهك في تلك المحطة، قدر نعمة الإيمان وأدرك الفرق بين من يجزم بأن طائرته ستهبط بسلام، وسيواصل المسير بأمن وأمان ينتهي إلى منتهى؛ هذه صفاته: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [هود: ١٠٨] وبين من يجزم أنها بعد إقلاعها لن تهبط بسلام، بل ستسقط وتفني ركابها إلى الأبد، وينتهي الأمر عند هذا الحد الظلامي المرعب: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] لكن سرعان ما يحطمهم الندم عند أول موقف حق يواجهونه دون أي فرصة للرجوع، وقد كانوا ينكرونه من قبل: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ

(١) نقلاً عن جاك (Jacques Bouveresse, Peut-on ne pas croire?, editions Agone, 2007, Marseille, pp127) بوفراس من كتابه (حول الحقيقة والاعتقاد والإيمان، دار الأرجون، عام ٢٠٠٧).

opeikandi.com

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥] قل لي بربك: أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًّا؟

ما أشبه هذه الدنيا بركوب الطائرة في رحلة لا خيار لك فيها، فأنت الآن بحياتك وعقلك وإدراكك وعمرك وتوترك في الدنيا كأنك راكب بطائرة، معلق في الهواء في رحلة بدأت من (ولادتك) متجهة بك إلى وجهتها المحددة، وكل شيء أمامك محدود ومحدد مسبقًا زمانًا ومكانًا، كل ما يجب عليك بالجملة أن تفعله، هو استعدادك وأنت في الطائرة للهبوط الآمن في نهاية هذه الرحلة السريعة، ليس من شأنك قيادة تلك الطائرة أبدًا، ولكن قبل هبوطها، بين يديك بيان واضح لكل طرق السلامة في كل مرحلة ستواجهك، فهذا شأنك أنت أن تأخذ به أو تتركه، لقد أخبرت كيف تحظى باستقبال خاص جدًّا جدًّا عند محطة الوصول التي لا مفر منها ولا مناص عنها (خروج الروح)، من يملك أدنى ذرة من عقل، ثم يفوت على نفسه جمال ألفاظ تحية الاستقبال هذه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] أو يفوت على نفسه سماع تلك التهاني والتطمينات المتتالية طوال خط السير حتى الوصول إلى التهنئة الكونية العظمى، التي تسمو فوق كل تهنئة، والتي سينادي بها كل من سلك طريق الحق مؤمنًا صادقًا عندما يحط رحاله الأخيرة في الجنة خالدًا فيها يستقبل بهذا النداء: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] فيستقر في هذا المقر: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

*****

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

تذكر جيدًا أن أمة المليار والنصف مليار مسلم لا تحتاج إلى إضافتك رقمًا واحدًا على تعدادها، بقدر ما أنت في حاجة أن تنتمي إلى دين الله ولو كنت وحيدًا لكي تنجو بنفسك ولنفسك بالإسلام يوم يقوم الأشهاد، ولكن تأكد أن المسلمين سيفرحون باتخاذك قرار النجاة والتزامك بدين الحق وطريق الهدى، وكيف لا يرضى ويفرح بذلك

إخوانك ورب العالمين وهو القوي الغني لا يرضى لعباده الكفر، ويرضى لهم الشكر، الدعوة إلى الدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ والترغيب فيه والترهيب من الإعراض عنه، ليس تسويقًا لمنتج مجهول ولا دعاية تجارية أو سياسية ولا مشروعًا انتخابيًّا لحزب بشري ولا تعاطفًا مع تكتل أو مجموعة، بل هو بحد ذاته إفصاح عما يمكن الإفصاح عنه من الحقيقة الناصعة وقول للحق المبين، وهو قضية الوجود والعدم، وقضية السعادة والشقاء الأبدية التي تتربع على قائمة أولوياتنا في هذا الوجود، هكذا يجب أن تنظر إلى دين ارتضاه الله بأن يكون الدين عنده وبه ختم الأديان كلها، وإذا مسّك طائف من الشيطان خلاف ذلك أو داهمتك وساوس تزهدك في هذا الدين العظيم، فبادر إلى العلاج فورًا بالتذكر وأبصر وتبصر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] ومن هذا التذكر أن تدرك أنه لو تنزل القائمون على هذا الدين المؤمنون به والمفتخرون بانتمائهم إليه، وواجهوا من يجدون في أنفسهم حرجًا مما جاء به الوحي، ثم سألوهم مباشرة: اِيتونا بدين يهتم بالإنسان والحيوان والنمل والهدهد والبيئة كلها كدين الإسلام، متدخلًا في جميع التفاصيل الإنسانية، من الرحم إلى الوجود إلى اللحود، ومن الطعام إلى اللباس إلى قضاء الحاجة، ينظم المجتمع والاقتصاد والحرب والسلم والحياة والممات وما بعد الممات! ماذا سيكون موقفهم؟

لقد حكم الله بحكمه، وقدر قدره بأن الدين عنده هو الإسلام الذي يبدأ من الإنسان، فيعتني به من كونه مني يمنى إلى أن يدخل الجنة أو النار؟ ألم يأمرنا بأبضاع الحلال وتكافؤ النسب؟ ألم يشرع لنا أحكام الجنين؟ وأحكام الرضاعة ومدة الحمل والعناية بالصغير وإعطائه اهتمامًا أكبر، ثم صيانة الجسم من المهلكات بعد الولادة والبلوغ، فأمره بالغذاء الحلال وبالستر وبحفظ اللسان وحفظ الفرج وكف أذى اليد والرجل، بل وحفظ المني وكف الأذى عن الغير والرعاية في المرض وحقوق الزوج والأولاد والبر والإحسان وترتيبات الموت من النطق بالشهادة والتغسيل والتكفين ومنح القراريط لحامل الجنازة والمصلين عليها ودافنيها، وتولى ترتيب أسرته من بعده، فقسم بينهم المال، ورتب نظام الزواج من عدة وحداد ورضاعة ونفقة وأوقاف ووصية، بل فتح للجميع مصراع باب التقرب إلى الله بالدعاء لأموات المسلمين عامة

عبر الأجيال المتعاقبة، يغمرهم بوافر الفضل وهم رفات في قبورهم، كل ذلك تشريع في الدنيا لك أيها الإنسان، لتحيا حياة سعيدة، أما الآخرة فبين لك سبيل السلامة أو الهلاك واضحًا جليًّا مفصلًا.

فهل من دين آخر أو تشريع بشري يقارب هذا الذي جاءنا من مصدر واحد وشخص واحد، والذي يجعل العاقل يذكر فضل الله عليه ونعمته أن هداه للإسلام، ثم لا يجد حرجًا مما جاء به الوحي خاصة بعدما يدرك أن كل هذا التشريع العظيم الصامد إلى الأبد قد وصل إلينا من خلال شخص واحد أمين لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولا يعرف مجتمع الجامعات ولا المراكز العلمية ولا الشهادات، فالإسلام بحق هو الحق الذي نزل علينا من عند خالق الخلق ومقدر الأقدار ﷻ، ويكفي اعترافه بجميع الرسل وجعل الإيمان بهم شرطًا للإسلام نفسه، وبهذا استحق أن يكون الدين الخاتم العام، إن استحضار هذا التصور الواضح المنصف عن الدين يدحض عنك وساوس الشيطان، ويحصنك بالإيمان بحول الله، ويجعلك مؤمنًا مستسلمًا منشرح الصدر للدين والوحي والقرآن والبعث واليوم الآخر، ولا تجد في نفسك أي حرج داخلي وأنت تقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩] وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

*****

كيف تدين دين الحق؟

إذا سلمنا بضرورة حضور الدين في حياة الناس جميعًا، فلنتجاوزها إلى الخطوة المقبلة، وهي: كيف ندين دين الحق الذي يحمينا، وينفعنا، وينجينا، ويسعدنا في الدنيا والآخرة؟ لا شك أن الإجابة عن هذا السؤال لا تخلو من صعوبة، فلن تجد أحدًا إلا ويدعي أنه هو الذي على الحق الأحق، وأن ملته هي الملة وما سواها هو العلة، حتى

فرعون قد قال لقومه من قبل: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] ومن دون هدي الله ستجد كل أمة تدعوك إلى سبيلها، وكل حزب بما لديهم فرحون، وكل فرد يرى أن الحق معه وحده، وأنه هو مركز الإيمان وأوسط الوسطية، وعلى هذا المعيار الذاتي عند الفرد يرى أن التفريط عند غيره هو ما كان دونه، والإفراط ما كان بعده، وكل أمة أو ملة أو طائفة سيزعمون أن الحق معهم وحدهم، وأنهم على سبيل الله القويم، وصراطه المستقيم، وترك الأمر بهذه الحالة فوضى وتيه لا يستقيم عليه أمر الناس، لكن الأمر لا يحتاج إلى كثير عناء لمعرفة دين الحق، فهو للخالق وحده وليس للمخلوق، وبعيدًا عن كل تعقيد منطقي أو جدل فلسفي، تدين دين الحق بأن تتبع سبيل الله، ولا تتبع غيره من السبل، فتفرق بك، تلك هي وصية الله لعباده: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ولهذا السبب كان لزامًا أن يتدخل الوحي الرباني لحسم الأمر بقوة، والآراء والأهواء البشرية المتناثرة والمتعارضة لا تصلح أن تكون مرجعًا لحل خلافات الناس دون ردها إلى الوحي، وهذا سر أمر الله للناس أن يتداولوا شأنهم بينهم وعند الاختلاف أمرهم الخالق ﷻ بالرد جميعًا إليه وإلى الرسول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وبعيدًا عن كل تعقيد أو وصاية أو استغلال، فإن التدين المطلوب بحمد الله يسير وميسر للجميع، ولا يتطلب سوى التسليم الكامل للخالق وحده بكل إخلاص، والإيمان الصادق بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وبذل الجهد في العمل والإخلاص للخالق فيه، ولا ينبغى أن يترتب على هذه المصارحة بالتفريق بين الدين والمتدينين أي إحباط أو يأس في الحياة أو زهد في الدين الحق، بل يجب أن نتوجه إلى الدين نفسه، نتلقاه صافيًا من مصادره وليس من سلوكيات بعض المتدينين، وإذا أردت أن تدين بدين الحق وأنت مطمئن فما عليك إلا أن تبدأ بالخطوة الأولى الضرورية لما بعدها وهي أن تؤمن بالله حق الإيمان، وجودًا وأسماءً وصفاتٍ، وهذا اعتقاد بالقلب لا يكلفك شيئًا، يوجب عليك أن تصدق بوجود الله يقينًا قاطعًا، وتقر له بربوبيته خالقًا

لكل شيء ومدبرًا له، وتقر له بألوهيته بأنه الواحد الأحد الذي يستحق العبادة، وحده لا شريك ولا ندّ له في ملكه، تؤمن بأسمائه وصفاته التوقيفية التي لا يشابهها شيء مما يخطر بعقول البشر؛ لأن الله ليس كمثله شيء سبحانه.

عش حياتك طبيعيًّا متوازنًا، ثم تعايش مع غيرك ممن يشاركك الحياة، ولا يحاربك من غير المسلمين من أجل مصلحتكما، واعلم أن دينك قد أوجب لهم حقوقًا معتبرة، وقبل ذلك التزامًا بحكم الله في هذه المسألة، فهو أعلم وأحكم من جميع خلقه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨] ولكن لا توادّه أو تحبه في قلبك أو تواليه ضد أخيك المسلم، فقد حكم الله بحكمه في هذه المسألة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

تأكد أنك لن تكون صالحًا مصلحًا بكفاءة ومنزلة الرسل المؤيدين بالوحي والملائكة، ومع ذلك ستجد في سيرتهم ما يكون لك عزاءً في أي إخفاق يقع منك أحيانًا، فبسبب الخطأ ومخالفة أمر القائد هزم المسلمون في أحد، وبسبب بعض العجب هزموا في حنين بادئ الأمر، فلا تيأس من روح الله، ولا تقنط من رحمته، وأحسن الظن به دائمًا، سدد وقارب في حياتك ما استطعت في كل أمر، عليك بالرفق في كل شيء وخاصة بنفسك الضعيفة، فلا تحمّلها من البلاء ما لا تطيق، فإنك منهي عن ذلك شرعًا، وعليك بالرفق مع الكل فـ «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه**»[1]، تأمل ما حولك، وتدبر، وتفكر، وخذ من العلم ما يثبت بالبرهان الحسي والبرهان العقلي، وما يستنتج من ذلك مساعدًا لك على تفسير الظواهر الكونية، ولكن لا تجعله مفسرًا نهائيًّا لها؛ لأن العلم يتطور، ويتغير ونصوص الوحي ثابتة وباقية، واعلم علم اليقين أن

(١) الحديث رواه مسلم (٢٥٩٤) عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**».

الوقت لا يتسع للعبث واللهو وطول الجدل، والفرصة الدنيوية لا تتحمل فوق سعتها الاستيعابية، فتدارك أمرك، وتضرع إلى الله تعالى بالدعاء دون أن يثنيك عن ذلك كبير ذنب أو عظم خطيئة.

تذكر أن أمامك مفاجآت قادمة مستحضرًا بيقين مسبق أنه لا عودة من هذه الرحلة الأولى، التي كانت هي الأخيرة أيضًا، لا تقلق من (شد حزام المقعد) في الحياة الدنيا بما تمر به من ابتلاءات فكرية وجسدية واجتماعية، فإنه مؤقت جدًّا، فاصبر عليه؛ لأن العاقبة للصابرين، كن كذلك مؤمنًا خائفًا راجيًا لله وحده لا شريك له، منتظرًا اليقين ولقاء الله تعالى، فهذا هو دين الحق بالجملة، وبعد ذلك ابتسم وتمتع بحياتك وعش سعادتك مع أهلك وأولادك، واحمد ربك أن عافاك مما ابتلى به غيرك، ولا تلتفت بعد ذلك إلى أحد من البشر مهما كان مقامه، فأنت غني بإيمانك هذا عن الخلق أجمعين: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] ولا تقتدِ بغير الأسوة الحسنة ﷺ وكفى، فقد حسم الله هذا الأمر من قبل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

هناك لحظات حتمية قاسية ستواجهك عند الموت، أدرك هذه الحقيقة جيدًا ما دمت في سعة من الأمر، واقلبها إلى لحظات أنس وفرح وطمأنينة بالإيمان بالله، أنقذ نفسك من كل ما يرعبها في هذا الوجود، قم بهذا وحدك، وتأكد أن كل من حولك الآن سيكون آخر عهدهم بك أنهم سيطمئنون بعد موتك على شيء واحد، وهو أنهم قد دفنوك حتى لا تظهر جثتك على سطح أرضهم أبدًا؛ لأن في ذلك إزعاجًا لهم! لقد أسلموك لشأنك وحدك، وستبقى مرهونًا برصيدك الشخصي معلقًا به في القبر، رصيدك في تلك المرحلة هو فقط ما كنت تعتقده، وتقوله، وتعمله يوم أن كنت فوق السطح مختارًا، لقد تركك الناس وحيدًا في قبرك لن ترى أحدًا من أهل الدنيا بعد ذلك إلا في أحد مكانين لا ثالث لهما: إما دار الشقاء الأبدية، أو دار السعادة الأبدية، ولكن بعد ماذا؟ بعد أن جاءنا الخبر الحق الذي لا نملك إلا تصديقه والإيمان به أن أمامنا أهوالًا يشيب منها الولدان، وستعبر أنت هذه الأهوال الموحشة وحيدًا: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧- ١٨] لقد

obeikandl.com

جاءنا النذير، فلا مفاجأة ولا صدمة ولا غرابة ولا عذر، ولن يكون الملاذ الآمن من تلك الأهوال إلا لعباد الله المؤمنين الذين وعدهم ربهم الرحمن في كل مرحلة بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

*****

﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤].

اعلم أن الإيمان بالله تعالى هو بوابتك المعرفية في الحياة الدنيا والآخرة، وهو مفتاح فهم كل شيء على الإطلاق غيبًا كان أم شهادة، وهو أصل عظيم في الوجود كله يتفرع عنه إيمانك بكل شيء بعده، من وجود وعدم، وبقاء وفناء، وخير وشر، وملائكة ووحي ورسل، وكتب مقدسة، وقضاء وقدر، وحياة البرزخ في القبر، وبعث ونشور، وجنة ونار، هذه الخطوة هي أهم وأولى الخطوات في طريق الإيمان بهذا كله، ولا ينبغي التفكير في الانتقال إلى العمل دون حسمها بالقلب والعقل، فالعمل لا ينفع بلا إيمان صحيح: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] بل إن قبول العمل الصالح الذي ينتج السعادة في الدارين مشروط بالإيمان السابق عليه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

لا يمكنك الشروع في الطاعات العملية ما لم يتم حسم هذا المدخل حسمًا نهائيًّا، ثم بعد هذا تنتقل إلى الطاعات القولية والعملية مسترخيًا مطمئنًا، وهذه الخطوة ميسرة جدًّا بقدر الاستطاعة، تجاهد نفسك في تنفيذ أمر الله ورسوله، مستحضرًا ضعفك وفقرك إلى من هو أغنى وأقوى، وأنك لن تدخل الجنة بعملك دون رحمة الله لك، ثم تجبر قصورك وتقصيرك بذكر الله والاستغفار والانكسار ودموع الخلوات، لا تجعل من صدمة المعصية حاجز يأس بينك وبين الكريم الرحيم ﷻ، مهما كبرت المعصية بعينك، فهي صغيرة في عفو الله ورحمته الواسعة مع صدق الندم والإخلاص في الاستغفار من العبد، تذكر أن أباك آدم قد عصى من قبل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وتذكر

أنك ابنه وأنك على خطى والدك قد خُلِقت خطاء أيضًا، وتذكر أنه لا يمكن أن تنفك من حبائل المعصية والخطيئة، وأن الخطأ ملازم لك، وما دمت حيًّا في الدنيا، فلست معصومًا من الذنوب، وقد خلقت ضعيفًا، لا تكترث بأحكام البشر على البشر، وكن واثقًا من رحمة رب البشر؛ لأن (المجرم) في أحكام البشر ما هو إلا شخص سوي يخطئ مثل أغلبهم إلا أنه قبض عليه متلبسًا! وكلما استكثرت ذنبك تذكر سعة رحمة الله، والجأ إليه بالدعاء موقنًا بالإجابة، وتذكر أن الله قد استجاب لإبليس وهو من هو بالكفر والمعصية، ألم يسأل ربه قائلًا: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص: ٧٩] فاستجاب له: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [ص: ٨٠] فكيف تظن أنه لا يستجيب لك وأنت تدعوه مستغفرًا، أو تستنصره مستضعفًا؟!

لقد أُمرنا ربنا بالطاعة، ونهانا عن المعصية، وأمرنا بمجاهدة النفس على ذلك بقدر الاستطاعة، ولكن المعصية إذا وقعت لا تنفي الإيمان، وإن أثرت في درجاته، وعلى كل من زهد بما آتاه الله من إيمان، وخاف على انفلاته أن يتذكر ذلك الشعور الغريب الذي يحاصره من كل جانب عند التجاوز بحق الله بصغيرة كانت أو كبيرة، ولأنه محب لله صادق الإيمان به، كثيرًا ما يعاتب نفسه متسائلًا: كيف أتجرأ على المعاصي في المعصية وأنا مؤمن بالله مستحضر عظمته وأسماءه وصفاته واطلاعه على السرائر، فيوسوس له الشيطان بمشاهد اليأس والإحباط، بل لربما أيضًا فهم حديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[1]، فهمًا خاطئًا، فيقسو بالحكم على نفسه وعلى كل عاصٍ مثله دون أن يقف عند عبارة: «**حين يزني**»، فالزاني مؤمن وإن ارتكب هذه الكبيرة المحرمة، لكنه لحظة ارتكابها قطعًا يمر (بسكتة) إيمانية يستدركها نادمًا تائبًا لمن كتب الله له الخير بعد لحظات من الحدث، متذكرًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ [الزمر: ٥٣].

ثم من قال لك: إن الخطيئة تتعارض مع أصل الإيمان، وقد خلقك الله خطاء؟ أي إنك لا بد أن ترتكب الذنب الموجب للاستغفار والاستكانة لله بعده، وهذه من لوازم

(١) الحديث رقم (٢٤٧٥) عند البخاري ورقم (٥٧) عند مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**».

obeikandl.com

العبودية لله، عبد يذنب ويستغفر، ومعبود يرحم ويغفر، وإلا لذهب الله بك، وجاء بقوم آخرين يذنبون ويستغفرون، فيغفر لهم، هكذا أخبرنا رسول الهدى والرحمة ﷺ بقوله: «**والَّذي نفسِي بيدِه، لَو لَم تُذنِبُوا لذهبَ اللهُ بِكُم، ولجاءَ بقومٍ يُذنِبُون فيستَغفِرونَ اللهَ فيغفرُ لَهم**»[1]، وثمة أمر آخر، وهو أنك لن تنفك من هذا الذنب حتى لو آمنت بالله إيمانًا يقينيًّا يبلغ إيمان الأنبياء، تذكر أباك آدم الذي جاء من عند الله، وخلقه الله بيده، وأوحى إليه، وأمر الملائكة بالسجود له، لقد كان طبيعيًّا جدًّا أن وقع في المعصية، فخالف نهي الله له ألا يقترب من تلك الشجرة: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] وكان من رحمة الله به أيضًا أن انتهى الأمر عند هذا الحد: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢] وأنت ولد آدم، ستذنب كما أذنب، فاستغفر كما استغفر، حتى يجتبيك ربك، ويتوب عليك، ويهديك كما اجتباه وتاب عليه وهدى، فكن قريبًا من الله تفلح، إذ لا ضير من وجود الذنوب والخطايا على الإيمان ما لم تكن مكفرة، أو أن يتطبع الإنسان عليها متهاونًا بها دون ندم ومجاهدة للنفس على ترك المعاصي، كن واثقًا مطمئنًا من أن الكريم الذي رحم أباك آدم، وتاب عليه سيرحمك، ويتوب عليك لأنه هو التواب الرحيم.

واجه الأخطاء المستعصية في نظرك بفتح خطوط موازية لها من الطاعات والعبادات وكثرة التوبة والاستغفار والندم، وحينها لا تكون مستعصية أبدًا، جاهد نفسك في الطاعة واجتناب المعصة بقدر الاستطاعة، فإذا ضعفت يومًا فأكثر من لجوئك إلى الرحمن الستير بالتضرع والبكاء والدعاء، مهما كانت خطيئتك، أصلح ما بينك وبين خالقك يصلح ما بينك وبين الخلق، قم بواجبات الدين الرئيسة العملية من صلاة وزكاة وصيام وحج بقدر استطاعتك، ثم تطوع بعد ذلك ما شئت، واعلم أنك لست مخلوقًا لكي تصبح ملائكيًّا في طهرك وصلاحك ونقائك، ولكن جاهد نفسك، وتأدب بآداب الإسلام العامة من قول الخير وصلة الأرحام والبر بالكبير والرحمة بالصغير والصدقة والهدية، قم بحق أخيك المسلم عليك، انصره ظالمًا أو مظلومًا، وكن به رفيقًا ورحيمًا، عليك بالوسطية والرفق والعفو والصفح والتسامح والبعد عن التجريم والتزكية

(١) الحديث رقم (٧٠٧٤) في صحيح الجامع للألباني.

بلا ضوابط يحددها النص الصريح، تذكر أن دين الحق وسطي بين إفراط المتنطعين وتفريط المعرضين، والتطرف من الجانبين آفة قاتلة تحول بين الناس وبين كثير من الحق المبين، أعرض عن هذا كله، وتذكر حقوق الأجيال عليك كما تتذكر حقوقك في توازن وجودي لن تجده إلا بالدين الحق الذي وصف انسجام الأجيال المؤمنة فيما بينها ونظرتها السلمية وتعاقبها المبني على المودة والمحبة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر: ١٠]، فما الذي يحول بينك وبين أن تدين بهذا الدين الذي هو الحق بعينه؟ كل ذلك سيتحقق بفضل الله وبرحمته انطلاقاً من هذا الإيمان الفطري المتجذر في قلبك، وستجد لذة في هذا التدين المتوازن وستكون لك الحياة كلها سعادة وفرحاً، وسيكون الموت كله ترقباً وأملاً، فلن يضيع حقك في أي ضراء أو ابتلاء أو مصيبة تصبر عليها، وعاقبة الصبر أن تنقلب الضراء إلى سراء، وتصبح مصدر نبع للحسنات ورفعة الدرجات، وكلها خطوط خير عريضة تغسل المعاصي مهما استعصت في نظرك بحول الله الذي قدم لنا هذا العرض الكريم بوعده الحق أن يتوب علينا، ويغفر لنا: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

*****